في ظلال السيرة (2)

د. عبدالله بن محمد حفني

إمام وخطيب جامع هيا العساف بالجميزة

موقع جامع هيا العساف :

<http://www.hayaalassaf.com>

القناة الرسمية على اليوتيوب :

<https://www.youtube.com/channel/UCq3VB0Xi1Zorm3_Hje4JaCw>

الأولى

نحن في يوم الجمعة ..

يوم الجمعة الذي ندبنا فيه إلى أشرف الذكر ، وأكرم الطاعات «إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ»

رواه أبو داود وصححه الألباني

فتعالوا معي ، نطوي الصفحات لنعيش مع حدثٍ جلل ، من أحداث السيرة النبوية الطاهرة ، مع رسو الله @ الذي اصطفاه الله واجتباه ، وصنعه وزكّاه ، وأرسله رحمةً للعالمين ..

تعالوا معي إلى صورةٍ من حياة نبينا @ هنا في مكة ، وتحديداً في خيفِ بني كنانة من جهة منى ، يومَ اجتمعت رؤوس قريش في اجتماعٍ طارئٍ يمكُرُون فيه مكراً كبّاراً ، ويكيدون لرسول الله @ وأتباعِهِ كيداً عظيماً ، فبعد ما رأت قريشٌ رسول الله @ وأصحابَهُ يزيدونَ ولا ينقصون، ويثبتون ولا يرتدون، ويجتمعون ولا يفترقون، عزمت قريشٌ على وقف هذا النور المهيب، الذي بدأ يشعُّ في سماء مكّة، فدعت قريشٌ أبا طالب الذي كان كنف رسول الله @ وحماه، وعرضوا عليه عرضا عجيباً، طلبوا منهُ أن يُسَلِّمَ إليهم رسول الله @ وألّا يحول بينهم وبينه، وكان مطلباً عجيباً، اشمأزت ونفرت منه نفس أبي طالب ، فكيف يخلّي بينهم وبين ابن أخيه ؟!

كيف يُسَلِّمَ إليهم من ربّاه ورعاه ، وقرّبه وآواه ، وأحبّه حبّاً جمّاً فأصبح له عمّاً كأب ؟

وبعد هذا الردّ العنيف ، والموقف الصلب من أبي طالب في ردّه على قريش ، أنشد قصيدةً يكشف من خلالها أنّه لن يُسَلِّمَ رسول الله @ إليهم حتّى يهلك دونه ، وذكر فيها :

وَلَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ لَا وُدَّ فِيهِمْ

وَقَدْ قَطَعُوا كُلَّ الْعُرَى وَالْوَسَائِلِ

وَقَدْ صَارَحُونَا بِالْعَدَاوَةِ وَالْأَذَى

وَقَدْ طَاوَعُوا أَمْرَ الْعَدُوِّ الْمُزَايِلِ

وَقَدْ حَالَفُوا قَوْمًا عَلَيْنَا أَظِنَّةً

يَعَضُّونَ غَيْظًا خَلْفَنَا بِالْأَنَامِلِ

صَبَرْتُ لَهُمْ نَفْسِي بِسَمْرَاءَ سَمْحَةٍ

وَأَبْيَضَ عَضْبٍ مِنْ تُرَاثِ الْمَقَاوِلِ

وَأَحْضَرْتُ عِنْدَ الْبَيْتِ رَهْطِي وَإِخْوَتِي

وَأَمْسَكْتُ مِنْ أَثْوَابهِ بِالْوَصَائِلِ

أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ مِنْ كُلِّ طَاعِنٍ

عَلَيْنَا بِسُوءٍ أَوْ مُلِحٍّ بِبَاطِلِ

كَذَبْتُمْ وَبَيْتِ اللَّهِ نُبْزَى مُحَمَّدًا

وَلَمَّا نُطَاعِنُ دُونَهُ وَنُنَاضِلِ

وَأَبْيَضُ يُسْتَسْقَى الْغَمَامُ بِوَجْهِهِ

ثِمَالُ الْيَتَامَى عِصْمَةٌ لِلْأَرَامِلِ

يَلُوذُ بِهِ الْهُلَّاك مِنْ آلِ هَاشِمٍ

فَهُمْ عِنْدَهُ فِي رَحْمَة وفواضل

عندها مكرت قريشٌ وكادت لأبي طالبٍ وبني هاشم بكيدٍ عظيم ، وتعاهدت قريشٌ بعهدٍ ظالمٍ واتفاقيةٍ صُنٍعَتْ من حقدٍ دفين ، وظلمٍ جائر ، فخطّطوا لأسلوبٍ جديدٍ لحرب الله ورسوله ، فصنعوا قانون المقاطعة فأبرموا على مقاطعة أهل مكّة فلا يتبايعون معهم، ولا يناكحوهم، ولا يخالطوهم، ولا تأخذهم بهم رأفةً حتى يُسْلِمُوا إليهم رسول الله @

وكتبوا هذا القانون الجائر في صحيفةٍ وعلّقت في جوف الكعبة ، وكانت أنفاس أبي جهلٍ جليّةً في هذه الصحيفة الظالمة ، وأعلنت قريشٌ عن هذه المقاطعة والمعاهدة ، وتقاسموا بآلهتهم على الوفاء بها ،

وانحاز رسول الله @ وأبو طالب ومن معهم في شعب بني هاشم بجوار الحرم المكي ، وبدأت الأيام تتعاقب ، والشهور تتابع ، والحصار يضيق ، ورسول الله @ وبنو هاشم يعيشون مرارة هذه الاتفاقية الجائرة ، ولك أن تتصوّر حجم هذه المقاطعة فقريشٌ يتبايعون ، ويتناكحون ، ويأكلون الطعام ، وبنو هاشم في شدّةٍ وفاقة ، يخرج أحدهم ليجني طعاماً لأهله وصبيانه ، فيعرض عنهم الباعة ، يطوف أحدهم على تجّار مكّة ليشتري من الطعام قوتاً فلا يبيعه أحدٌ طعاماً ، فيعود لأبنائه الجوعى ، وهم يتضاغون من الجوع ، وبقيت هذه المعاهدة الجائرة

حتى تتامت ثلاث سنوات ، ذبلت فيها الأجساد ، وجفّت الأكباد ، وقرقرت البطون ، وظمئت الأجواف ، أطفالٌ يصرخون ، وشيوخٌ يئنّون، ومرضى يتوجّعون، ورجالٌ حائرون، فقد قلّ الطعام ، ونقص الزاد ، حتّى قال عتبة بن غزوان > في وصفه لهذه المقاطعة الجائرة التي نزلت برسول الله @ وقومه : لَقَدْ رَأَيْتُنِي سَابِعَ سَبْعَةٍ مَعَ رَسُولِ اللهِ @ مَا لَنَا طَعَامٌ إِلَّا وَرَقَ الشَّجَرِ، حَتَّى قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا، وَإِنِّي الْتَقَطْتُ بُرْدَةً فَشَقَّقْتُهَا بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدٍ، فَأْتَزَرَ بِنِصْفِهَا، وَاتَّزَرْتُ بِنِصْفِهَا . رواه أحمد .

وهذا سعد بن وقاص > يصف معاناته في هذه المقاطعة فيقول : خَرَجْت ذَاتَ لَيْلَةٍ لِأَبُولَ، فَسَمِعْت عند رشاش بولي قَعْقَعَةً ، فَإِذَا قِطْعَةٌ مِنْ جِلْدِ بَعِيرٍ يَابِسَةٍ، فَأَخَذْتهَا وَغَسَلْتهَا، ثُمّ أَحْرَقْتهَا ثُمّ رَضَضْتهَا، وَسَفِفْتهَا بِالْمَاءِ، فَقَوِيت بِهَا ثَلَاثًا. **الروض الأنف ( 3/354)**

يقول ابن سيرين : إن كان الرجل من أصحاب رسول الله @ يأتي عليه ثلاثة أيام ، لا يجد شيئاً يأكله ، فيأخذ الجلد فيشويها ، فإذا لم يجد شيئاً أخذ حجراً فشد صلبه.

أما رسول الله @ فقد ذكر معاناته ، وشدّته فقال : «لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ فِي اللَّهِ، وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، وَمَا لِي وَبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ، إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطُ بِلَالٍ» رواه أحمد .

يا لله العجب ، وما هو الطعام الذي سيواريه إبط بلال ، الذي هّزُل جسمه ، وأنهكه الجوع والنصب.

يا كرام .. لنضع هذا المشهد من القهر والجوع ، والضيق والظلم نصب أعيننا ، قارن حال رسول الله وأصحابه وهم في هذا الضيق ومانحن فيه اليوم من الترف والنعم ، وقد بسطت لنا الدنيا بحذافيرها فهل نحن أكرم على الله منهم ؟ لا وربّ الكعبة @ فهم أقربُ وأحبُّ إلى الله منَّا ؛ ولكنها الدنيا الفانية التي يعطيها الله من يحبّ ومن يكره ، ولك أن تعيش مع رسول الله @ وهو في هذه الشدة يطوف في شعب بني هاشم وبين بيوت أهله وقرابته ويسمع صراخ الأطفال ، وأنين النساء ، وقهر الرجال ، وهم يتضاغون من الجوع حتى رثي لحالهم القريب والبعيد ، ورسول الله @ ثابتٌ على دعوته ، عازمٌ على رسالته ، بل يتوافد الصحابة إليه معلنين إسلامهم، منقادين لدينهم: ﭽﯮﯯﯰ ﯱ ﯲ ﯳ ﯴ ﯵ ﯶ ﭼ

أقول قولي هذا وأستغفر الله العظيم ..

الثانية

وبعد ما تتامت ثلاث سنواتٍ كالحة، كان رباط الإيمان وحده هو الذي يمسك القلوب ويصبّر على اللأواء ، تحرّكت مشاعر القربى والنخوة في بعض رجال بني قريش ، فاجتمع نفرٌ منهم وتلاوموا على هذه الصحيفة الظالمة ، وتحرّكت فيهم وشائج الشهامة والنّخوة فعزموا على نقض هذه الصحيفة ، وإزالة حياة الضرّ الذي قاساها بنو هاشم ، فمزّقوا الصحيفة وكشفوا هذا الكرب العظيم ، الذي نزل برسول الله @ وبنو هاشم ، وخرج بنو هاشم من الشعب وكأنما نشروا من قبورهم .

ومرت السنون والأعوام على هذا الحدث الضخم ، وإذا بنبيك @ يزحف إلى مكّة في حجّة الوداع في موكبٍ مهيب، يقول جابر > في وصفه لهذا الموكب: نَظَرْتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَيْنَ يَدَيْهِ، مِنْ رَاكِبٍ وَمَاشٍ، وَعَنْ يَمِينِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَعَنْ يَسَارِهِ مِثْلَ ذَلِكَ، وَمِنْ خَلْفِهِ مِثْلَ ذَلِكَ.

كلّهم قد آمن بنبوته ، وأذعن لرسالته ، فقد خرج النور والإسلام من شعبِ بني هاشم ، يملأ الأرض كلّها ، فها هو @ بعد حجّة الوداع ، وبعد ما رمى جمرة العقبة في اليوم الثالث عشر ، فيسأله أُسَامَةُ بنُ زَيْدٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيْنَ تَنْزِلُ غَدًا ؟

قَالَ @: «نَحْنُ نَازِلُونَ غَدًا بِخَيْفِ بَنِي كِنَانَةَ المُحَصَّبِ، حَيْثُ قَاسَمَتْ قُرَيْشٌ عَلَى الكُفْرِ»،

فيقول @: أنزل في خيف بني كنانة .

الله أكبر .. في خيف بني كنانة ؟ نعم

في ذاك المكان الذي اجتمعت فيه صناديد قريش على المقاطعة والحصار قبل أكثر من ثلاث عشر سنة.

في ذاك المكان الذي كتبت فيه الصحيفة الجائرة .

في خيف بني كنانة حيث تعاهدوا فيه على الكفر ، وإطفاء نور الله ، وينزل رسول الله @ في خيف بني كنانة ، وينام الليلة الرابع عشر في المكان الذي تآلبت فيه قريشٌ على رسول الله @

ﭽﮄ ﮅ ﮆ ﮇ ﮈ ﮉ ﮊ ﮋ ﮌ ﮍ ﮎ ﮏ ﭼ الصف: ٨

أين الذين كتبوا الصحيفة ؟

أين الذين تحزبوا على الكفر والكبر ؟

أين الذين حادوا الله ورسوله، وشنّوا تلك المقاطعة الآثمة ؟ لقد دفنوا صرعى في قليب بدر ،،

وبقي هذا الدين العظيم ،،

وبقي رسول الله @ بشريعته ، ومعجزته ، ونوره .

**انتهت الخطبة**